أمّا قَبْلُ

أ.د. عبد الستار الحلوجي(*)

فقدت الأمّةُ العربيّةُ والإسلاميّةُ عَلَمًا من أعلام الفكر، ورمزًا من رموز الثقافة، ورائدًا من روّاد الدراسات العربيّة والإسلاميّة هو الدكتور شوقي ضيف الذي عن دنيانا الفانية في غرة المحرم سنة ١٤٢٦هـ/ العاشر من فبراير سنة ٢٠٠٥م، بَعْدَ حياةٍ حافلةٍ بالعطاء. والواقع أنَّ المرءَ يتهيّبُ ويشعرُ بالضآلة حين يقترب من شوقي ضيف، ويتهيّبُ أكثر حين يتصدّى للحديث أو الكتابة عنه. فهو بحر زخّار وقمة شاهقة ونموذج رائع للعلم والفضل ومكارم الأخلاق؛ ولذا يصعب على أي إنسان أن يوفّيه حقّه، وأن يستوعبَ جوانبَ العظمة في شخصيته، والأصالة والإبداع في مؤلّفاته التي أثرى بها المكتبةَ العربيّةَ على مدى أكثر من نصف قرنٍ من الزمان.

كان كالنهر العظيم الذي يتدفق بالخير، وينشر الخصب والنماء، وكالجبل الأشم الذي لا يتأثر بالعواصف والأعاصير. كان كالنهر في عمقه وصفائه وعذوبته وثرائه، وكالجبل في رسوخه وشموخه. كان وقورًا مهيبًا، وكان أستاذًا بكل معاني الأستاذية، وإنسانًا بأدقِ ما تحمله الكلمةُ من معاني النبل والنقاء.

كان قمة في العلم، ولم تكن قامته في السلوك أقلَّ من قامته العلمية. ولعلّي لا أبالغ إذا قلت: إنه لم يكن قمةً واحدةً، وإنما مجموعة من القمم اندمجت في شخصيته في تآلف وتجانس وتوافق منقطع النظير. ولهذا كان قدوة لنا في جركاته وسكناته وكل تصرفاته، وكان يمثل في نظرنا صورةَ العالِم المتبتّل في محراب علمه، القانع بما يصنع في هدوء وصمت.

كان عظيمًا، وكان في الوقت نفسه غايةً في البساطة والتواضع ولين الجانب. ولم يكن تواضعه مكتسبًا وإنما كان صفة أصيلة فيه. كان مهذّبًا ورقيقًا وودودًا إلى أقصى درجة، لم يرفع صوته يومًا على أحدٍ من زملائه ولا حتى من تلاميذه، ولم يُعادِ أحدًا من خلق الله رغم كثرة العداوات من

(*) أستاذ بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

حوله؛ ومن ثم كان من القلائل الذين لا يختلف حولهم اثنان، والذين يُجمع النامُ على حبّهم واحترامهم.

لم يسع إلى الشهرة، ولم تبهره الأضواء في يوم من الأيام، وإنما كان على العكس من ذلك تمامًا. فلم يكن من هواة الأحاديث الإذاعية، ولا من أصحاب البرامج التليفزيونية، ولا من كتاب الصحُف. وحين كتب للأهرام لم يكن من كتّابها المنتظمين وإنما استكتبته الصحيفة في رمضان فلم تخرج كتابته عن تفسير سورة الرحمن وبعض قصار السور.

لم يسع إلى أيّ جائزة، وإنما سعت إليه أكبرُ الجوائز لتشرف به قبل أن يشرفَ بها. وحين رشّحه قسمُ اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة لجائزة الملك فيصل العالمية في الأدب في عام ١٩٨٣ـ ذهب إلى الدكتور حسين نصار (وكان وقتها عميدًا للكلية) يطلب منه ألا يرفع هذا الترشيح إلى الجامعة أو إلى المؤسسة التي تمنح الجائزة. وعندما رُشّح لجائزة مبارك وأخطأته الجائزة أكثر من مرة لم يكن ذلك إساءة إليه بقدر ما كان إدانةً للمسئولين عن الجائزة، وهي إدانة سجّلها يومها أعلام الفكر والأدب، وسجلتها الصحافة المصرية، وكان ذلك دليلاً على يقظة ضمير الأمة. ولم تلبث الجائزة أن سعت إليه على استحياء شديد.

أثرى المكتبة العربية بمؤلفاته التي ستظل مَعينًا لا ينضب لكلِّ مشتغلٍ بدراسة اللغة والأدب والبلاغة والنقد، وكل باحث في الحضارة الإسلامية. فقد أرّخ للأدب العربي في موسوعته الضخمة التي لا نظير لها على امتداد تاريخ هذا الأدب، وكتب عن فنونه كالرثاء والمقامة والترجمة الشخصية والرحلات، كما كتب عن أعلامه، مثل: ابن زيدون والبارودي وشوقي والعقاد. وأرّخ للبلاغة العربية، وألّف عن المدارس النحوية وعن تجديد النحو وتيسيره للدارسين. وأصدر تفسيرًا للقرآن الكريم وسيرة للنبي عليه الصلاة والسلام، وكتبًا عن الإسلام وحضارتِه وعالميته، وعن القرآن ومعجزاته.

وإلى جانب مؤلّفاته الغزيرة كانت له جهودٌ متميزةٌ في مجال التحقيق، بدأها برسائل الصاحب ابن عباد، ومن بعدها كتاب "الرد على النحاة" لابن مضاء القرطبي. كما حقّق "الدُرر في اختصار

المغازي والسير" لابن عبد البر، و"السبعة في القراءات" لابن مجاهد، وأجزاءً من كتابيْ: "خريدة القصر" للعماد الأصفهاني، و "المُغْرِب في حلى المَغْرِب" لابن سعيد . وختم أعماله المحققة بـ "سراج الملوك" للطرطوشي.

ولا يتسع المقام هنا للتعريف بالنتاج العلمي المتنوع والمتميز لأستاذ الأجيال الدكتور شوقي ضيف وللتحليق في عالمه الرحب، وما أظنُّ إلا أن تراثه الذي خلّفه لنا سيكون موضعَ دراسات كثيرة، لا من جيلنا وحده وإنما من هذا الجيل ومن الأجيال التالية، وستظل مؤلَّفاتُه بحرًا يغرف منه الدارسون، ومَعينًا لا ينضب بالعطاء، وكنزًا يثري عقل الأمة ووجدانها .

والمتأمل لهذا التراث الضخم الذي تركه لنا الراحل العظيم يلفت انتباهه أمور، أُوجزها فيما يلي:

أولاً: أنه يتسم بالغزارة والتنوع؛ فقد تجاوزت مؤلَّفاتُه الخمسين كتابًا تناولت الأدب العربي من جميع جوانبه، فعرّفت بفنونه، واستعرضت تاريخه وتطوره في جميع عصوره وبيئاته، كما عرضت لمناهج البحث فيه، وترجمت لبعض أعلامه البارزين في القديم والحديث.

وإلى جانب الدراسات الأدبية التي تمثل الجانب الأكبر من مؤلفات أستاذنا الجليل، كانت له مؤلفاتٌ رائدةٌ في اللغة والنحو والبلاغة والنقد والدراسات الإسلامية. كما صدرت له سبعةُ كُتب محققة في الأدب والدين والتاريخ.

ثانيًا: أنه يتصف بالاستمرارية ؛ فهو موزع على سبعة وخمسين عامًا تبدأ بأربعينيات القرن الماضي، وبسنة ١٩٤٣م على وجه التحديد، وتمتد إلى مطلع القرن العشرين (سنة ٢٠٠٠) بلا توقف أو انقطاع، وأنّ فترة الخمسينيات كانت أغزرَ الفترات إنتاجًا؛ حيث صدر له فيها ثلاثة عشر كتابًا مؤلَّفًا وكتابان محققان، يليها فترة الستينيات والتسعينيات التي صدر له في كُلٍّ منهما عشرةُ كتب وكتابٌ محقّق. أمّا فترة الأربعينيات فكانت أقلَّ الفترات إنتاجًا؛ حيث صدر له فيها كتابان من تأْليفه، أحدهما رسالته للدكتوراه، إضافةً إلى كتابين محققين.

ثالثًا: أن ما ألّفه في سلسلة فنون الأدب العربي صدر كله في الخمسينيات، أما موسوعته عن تاريخ الأدب العربي فقد امتدت على مساحة زمنية واسعة بدأت بأواخر الخمسينيات واستمرت حتى أوائل التسعينيات، وشملت بيئات أدبية لم يكتب عنها من قبل، مثل: إيران ودول المغرب العربي والسودان وصقلية.

رابعًا: أن فترة التسعينيات وما بعدها شهدت اتجاهًا واضحًا نحو الكتابات الإسلامية؛ فقد صدر له في التسعينيات: "الوجيز في تفسير القرآن"، و "عالمية الإسلام"، و"الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة". و استمرّ هذا الاتجاه في السنوات الأولى من القرن الحالي، حيث أصدر في سنة ٢٠٠٠ كتاب "محمد خاتم المرسلين"، وفي العام التالي أصدر كتابه "القسَم في القرآن الكريم"، وفي سنة ٢٠٠٢ صدر له "معجزات القرآن" فكانت مِسْكَ الختامِ.

خامسًا: أن بعضَ كتبِه طُبِع طبعة واحدة، ولكنّ أغلبها طُبِع عدة طبعات بلغت أكثر من عشرين طبعة لبعض أجزاء موسوعته "تاريخ الأدب العربي".

تلك نظرة طائر على تراث راحلنا العظيم، وقطرة من بحر علمه الغزير. ولا أجد ختامًا لكلمتي أفضل من قول المصطفى ﷺ: "خيركم من طال عمره وحُسن عمله". وأحسبُ أنَّ هذا الحديث يصدق على شوقي ضيف الذي فقدته العربيّةُ أُمّةً ولسانًا، والذي سيظل اسمه محفورًا في ذاكرة الأمة، وستظلُّ صورتُه حيّةً في وجدانها. فمثله يرحل عن عالمنا بجسده لأن كل مولود يموت، ولكنه يبقى حيًّا بفكره وقيمه وعطائه الثري الباقي على الأيام.

رحم الله شوقي ضيف رحمةً واسعةً، وأسكنه فسيح جناته؛ جزاء ما قدّم لتلاميذه ومريديه، ولكلِّ ناطقٍ بالعربية إلى أن تقوم الساعة، و﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾.